مجلة دراسات بيت المقدس، 2018، 18(3):143-163
DOI: 10.31456/beytulmakdis.482330

الفقه والفقهاء في بلاد الشام في عهد نور الدين زنكي

آية الشقاقي*

ملخص: تناول هذا البحث ترجمة يسيرة عن الملك العادل نور الدين محمود، وتعرض البحث لنسبه ومولده وصفاته ومناقبه وإنجازاته وأقوال كتاب التاريخ عنه ومواقف عدل نور الدين وزهده وألقابه وصولاً إلى وفاته. ثم تناول البحث المراكز العلمية التي كانت تدرس الفقه في عهد نور الدين ابتداءً باهتمامه بالمساجد من ترميمها وإنشائها ووقف الأوقاف عليها، ثم الحديث عن أهم هذه المراكز وهي المدارس الفقهية المختصة بدراسة المذاهب الفقهية السنية الأربعة، وبالخصوص في حلب وفي دمشق، ونهايةً بالمكتبات التي اهتم بها نور الدين. واختتم البحث بالحديث عن الفقهاء في عهد نور الدين بذكر أهم أعمال الفقهاء في عهده، ثم ذكر أشهر العلماء في المذهب الشافعي والحنفي والحنبلي، وذكر سبب اهتمام نور الدين بالمذهب الشافعي رغم كونه حنفياً في حلب. وهدفت هذه الدراسة إظهار اهتمام نور الدين بالفقه والفقهاء في عهده، وأثر ذلك على نجاحه في القضاء على الشيعة وفكرهم، وكيف أسهم ذلك في توحيد الأمة الإسلامية بذكائه ونباهته.

الكلمات المفتاحية: نور الدين، المساجد، المدارس، حلب، دمشق، المذهب الشافعي، المذهب الحنفي.

Jurisprudence in Bilad al-Sham during the reign of Nur al-Din Zengi

ABSTRACT: *This paper deals the life of the Just King, 'al-Malik al-Adil', Nur al-Din Mahmud Zengi and presents a short biography of his life. It also deals with his personality, upbringing, characteristics, asceticism, titles as well as his achievements. The paper deals additionally with his interest in developing scholarly centres for teaching jurisprudence, as he paid much attention to the restoration and construction of mosques, schools and libraries, and dedicating endowments (Awqaf) on them. Furthermore, the paper discusses the most important scholarly institutions of jurisprudence for the four Sunni madhhabs (legal schools of law) particularly in Aleppo and Damascus. Together with deliberating on the most prominent scholars of these schools and their works during this period. It is also noted that although Nur al-Din was adherent to the Hanafi madhhab he paid particular interest to the Shafi'i Madhhab and an explanation for the reasons behind that is presented. The study shows the interest of Nur al-Din in jurisprudence and jurists and its effect on eradicating Shi'ism from the region. It is also shown how he was successful, through his wise policies, in contributing to the unification of the Muslim Ummah.*

KEYWORDS: Nur al-Din, mosques, madrasas, Aleppo, Damascus, Shafi'i Madhhab, Hanafi Madhhab.

* طالبة دكتوراة في كلية علوم الاجتماع، قسم الحقوق الإسلامية، جامعة نجم الدين أربكان، قونية – تركيا،
aaya2020aaya@hotmail.com

مقدّمة

لقد شكل العصر الذي تولى فيه نور الدين محمود عصراً ذهبياً بفضل جهود هذا الملك العادل في مختلف النواحي، وبذكائه وبصيرته وحمله لهم الأمة في تلك الفترة، وإن الدارس لسيرته ليعلم أنه قد أحسن التصرف في صرف جهوده في الاتجاه الصحيح نحو توحيد الأمة، فيجعل الله على يديه فتح دمشق وتطهير حلب من الشيعة وتجهيزه لفتح بيت المقدس وفتح مصر. وما كانت هذه الإنجازات إلا بعد أن أجاد استخدام الوسائل المتاحة لديه أفضل استخدام لتحقيق هدفه المنشود، فقد أسس دولته على العدل، وقرب العلماء والفقهاء منه، واهتم بهم اهتماما بالغاً، ولقد صدق سبط ابن الجوزي إذ يقول: "اعلم أن سيرة نور الدين أولى ما صرفت العناية إليها، واعتمد في اغتناء الفضائل عليها، تحثُّ الطالب على نيل المطالب، وتعدل بهمة الراغب على تحصيل الرغائب، وقد ذكر العلماء سيرته، وسطر الفضلاء ترجمته".[1]

وقد رأت الباحثة الاهتمام الواضح الذي أولاه نور الدين للعلماء وبالأخص الفقهاء، من إنشاء المدارس الفقهية الخاصة بكل مذهب من المذاهب، واستقدامه الفقهاء إلى دمشق وحلب، وصرفه الأوقاف عليهم، فأرادت الباحثة تسليط الضوء على هذا الجانب من جوانب حياة نور الدين زنكي، وكيف أنه قد أصاب في اهتمامه بالمذاهب الفقهية من أجل تحقيق هدفه الأسمى وهو توحيد جهود الأمة الإسلامية عن طريق القضاء على خطر الشيعة الذي كان يتغلغل في حلب في تلك الفترة.

يتمحور هذا البحث حول سؤال رئيسي وهو: هل كان للفقه دور في تحقيق هدف نور الدين زنكي بتوحيد الأمة والقضاء على الشيعة؟ والتركيز على هذا الدور، واهتمام نور الدين بدعم هذا الأساس العظيم في عصره بالوسائل والطرق المتاحة كافة.

وجدت الباحثة الكثير من الكتب والأبحاث التي تحدثت عن نور الدين، ومن أبرزها:

1. كتاب نور الدين محمود وتجربته الإسلامية، للدكتور عماد الدين خليل.
2. كتاب القائد المجاهد نور الدين محمود شخصيته وعصره للدكتور علي محمد الصلابي، وهذا الكتاب جزء من كتاب عصر الدولة الزنكية ونجاح المشروع الإسلامي بقيادة نور الدين محمود في مقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي.
3. كتاب رائد نصر المسلمين على الصليبيين نور الدين محمود سيرة مؤمن صادق، للدكتور حسين مؤنس.
4. رسالة ماجستير بعنوان السياسة الداخلية لنور الدين محمود زنكي، إعداد الطالب: محمد نجيب/ عبد الوهاب محمد حمد، وهي رسالة قدمت استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي.

وقد أسهبت هذه الدراسات عند حديثها عن شخصية نور الدين وصفاته وأعماله وإنجازاته، ولا نغفل كتب التاريخ التي تحدثت عن نور الدين محمود؛ مثل: الكامل في التاريخ، وتاريخ دمشق لابن عساكر، والبرق الشامي للأصفهاني، ولكن الباحثة أرادت في هذا البحث التركيز على نقطة مهمة وهي دور الفقه والفقهاء في مد يد العون لنور الدين لتوحيد هذه الأمة ومحاربة المد الشيعي؛ وتحرير بيت المقدس. في هذه الورقة استخدمت الباحثة المنهج الوصفي التحليلي عند جمعها للمعلومات المختصة بنور الدين وبالتحديد جانب الفقه والفقهاء.

ترجمة نور الدين محمود

نسبه ومولده: هو الملك العادل، نور الدين، ناصر أمير المؤمنين، تقي الملوك، ليث الإسلام، أبو القاسم، محمود بن الأتابك قسيم الدولة أبي سعيد زنكي بن الأمير الكبير آقسنقر، التركي السلطاني الملكشاهي.[2] كان عمره قريباً من ثمان وخمسين سنة.[3] وذكر الحافظ ابن عساكر أنه ولد سنة إحدى عشرة وخمسمئة.[4]

صفاته ومناقبه: كان معتدل القامة، أسمر اللون، واسع الجبهة، حسن الصُّورة، لحيته شعراتٌ خفيفة في حنكه، حلو العينين.[5] نشأ على الخير والصَّلاح، وقراءة القرآن، وكان مواظبًا على العبادة، وكان قليل المخالطة للجُنْد، وكان أبوه زنكي يقدمه على أولاده ويرى فيه مخايل النجابة.[6] وكان بطلا شجاعا، وافر الهيبة، حسن الرمي، مليح الشكل، ذا تعبد وخوف وورع.[7] كان عارفًا بمذهب أبي حنيفة، وليس عنده تعصُّب على أحدٍ، والمذاهب كلّها سواء.[8] كان نور الدين مليح الخط، كثير المطالعة، وكان من رآه شاهد من جلال السلطنة وهيبة الملك ما يبهره، فإذا فاوضه، رأى من لطافته وتواضعه ما يحيره.[9] كما كان كثيرَ الصِّيام، وله أوراد في اللَّيل والنَّهار، فكان يقدِّم أشغال المسلمين عليها ثم يتمّم أوراده.[10] حكى من صحبه حضرا وسفرا أنه ما سمع منه كلمة فحش في رضاه ولا في ضجره، وكان يواخي الصالحين، ويزورهم، وإذا احتلم مماليكه أعتقهم، وزوجهم بجواريه، ومتى تشكوا من ولاته عزلهم، وغالب ما تملكه من البلدان تسلمه بالأمان، وكان كلما أخذ مدينة، أسقط عن رعيته قسطا.[11]

كان في الحرب ثابت القدم، حسن الرمي، يتقدَّم أصحابه فيها، ويتعرَّض للشَّهادة، قال له القطب النيسابوري: بالله لا تخاطر بنفسك، فإن أصبت في معركة لا يبقى للمسلمين أحد إلا أخذه السيف، فقال: ومن محمود حتى يقال هذا؟! حفظ الله البلاد قبلي لا إله إلا هو.[12] وما كان أحدٌ من الأُمراء يتجاسر أن يجلس عنده من هيبته، فإذا دَخَلَ عليه فقيرٌ أو عالم أو ربُّ حِرْفة، قام ومشى إليه وأجلسه إلى جانبه، ويعطيهم الأموال، فإذا قيل له في ذلك يقول: هؤلاء لهم حقٌّ في بيت المال، فإذا قنعوا منا ببعضه، فلهم المِنَّة علينا.[13]

إنجازات نور الدين محمود ومواقف عدله وزهده

كان نور الدين حامل رايتي العدل والجهاد، افتتح حصونا كثيرة، نحو نيفًا وخمسين حِصْنًا، منها: تل باشر، وعَزَاز، ومَرْعَش، وبَهَسْنى، وتل خالد، وحارم، والمِرْزُبان، ورَعْبان، وكيسون، والرُّها، وكسر إبرنس أنْطاكية، وقتله، وقتل معه ثلاثة آلاف، وأخذ من القومص ثلاثمئة ألف دينار وخمسمئة زَرَدية، وخمسمئة حصان، وخمسمئة أسير. واتسع مُلْكه، ففتح المَوْصل والجزيرة وديار بكر والشَّام والعواصم ودمشق وبعلبك وبانياس ومِصْر واليمن، وخُطِبَ له في الدُّنيا، وأظهر السُّنَّة بحلب، وأزال الأذان بحيّ على خير العمل، فأظهر السنة بحلب وقمع الشيعة.[14]

كذلك بنى نور الدين المدارس بحلب وحمص ودمشق وبعلبك والجوامع والمساجد، وسلمت إليه دمشق للغلاء والخوف، فحصنها، ووسع أسواقها، وأنشأ المارستان ودار الحديث والمدارس ومساجد عدة، وأبطل المكوس من دار بطيخ وسوق الغنم والكيالة وضمان النهر والخمر، ثم أخذ من العدو بانياس والمنيطرة، وكسر الفرنج مرات، ودوخهم، وأذلهم. بنى دار العدل، وأنصف الرعية، ووقف على الضعفاء والأيتام والمجاورين، وأمر بتكميل سور المدينة النبوية، واستخراج العين بأحد دفنها السيل، وفتح درب الحجاز، وكذا فعل إذ ملك حران وسنجار والرها والرقة ومنبج وشيزر وحمص وحماة وصرخد وبعلبك وتدمر.[15] وبنى الربط والجسور والخانات، وجدد كثيرا من قنى السبيل. كذا صنع في غير دمشق من البلاد التي ملكها. ووقف كتبا كثيرة، وحصل في أسره جماعة من أمراء الفرنج.[16]

كسر نور الدين الفرنج والأرمن على حارم وكانوا ثلاثين ألفا، فقل من نجا.[17] وهو الذي جدد للملوك اتباع سنة العدل والإنصاف، وترك المحرمات من المأكل والمشرب والملبس وغير ذلك؛ فإنهم كانوا قبله كالجاهلية: هم أحدهم بطنه وفرجه، لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا، حتى جاء الله بدولته فوقف مع أوامر الشرع ونواهيه، وألزم بذلك أتباعه وذويه، فاقتدى به غيره منهم، واستحيوا أن يظهر عنهم ما كانوا يفعلونه.[18] جهز نور الدين رحمه الله جيشا لجبا مع نائبه أسد الدين شيركوه، فافتتح مصر، وقهر دولتها الرافضية، وهربت منه الفرنج، وقتل شاور، وصفت الديار المصرية لشيركوه نائب نور الدين، ثم لصلاح الدين، فأباد العبيديين، واستأصلهم.[19]

مواقف عدل نور الدين وزهده

وأما سيرته –رحمه الله– في عدله وزهده، وخوفه من الله تعالى، وجهاده لعدو الدين، وصدقاته ومعروفه وإحسانه، وابتغائه لثواب الله تعالى ولدار الآخرة، فهي أشهر من أن تذكر، وسأذكر بعض ما نقل من أخباره:

كان يومًا يلعب بالكرة في مَيدان دمشق، فجاءه رجلٌ، فوقف بإزائه وأشار إليه، فقال للحاجب: سَلْه ما حاجته؟ فسأله، فقال: لي مع نور الدِّين حكومة، فرمى الصّولجان من يده، وجاء إلى مجلس القاضي كمال الدين بن الشَّهْرُزُوري، وتقدَّمه الحاجب يقول للقاضي: قد قال لك لا تنزعج، واسْلُكْ معي ما تسلكه مع آحاد النّاس. فلما حضر سوَّى بينه وبين خصمه، وتحاكما، فلم يثبت للرَّجل عليه حق، وكان يدَّعي ملْكًا في يد نور الدِّين، فقال نور الدين للقاضي والعدول: هل ثَبَتَ له عليَّ حق؟ قالوا: لا، قال: فاشْهدوا أَنِّي قد وَهَبْتُ له الملك، وقد كنتُ أعلم أنَّه لا حقَّ له عندي، وإنما حضرت معه لئلا يُقال عني أني دُعيت إلى مجلس الشرع، فأبيتُ.[20]

وذكر أنه دخل يوما إلى خزانة بيت المال، فرأى فيها مالا أنكره، فسأل عنه، فقيل: إن القاضي كمال الدين أرسله، وهو من جهة كذا، فقال: "إن هذا المال ليس لنا ولا لبيت المال في هذه الجهة شيء"، وأمر بردّه وإعادته إلى كمال الدين ليردّه إلى صاحبه، فأرسله متولي الخزانة إلى كمال الدين، فردّه إلى الخزانة، وقال: "إذا سألك الملك العادل عنه فقل له عني إنه له"، فدخل نور الدين إلى الخزانة مرة أخرى، فرآه، فأنكره على النّواب، وقال: "ألم أقل لكم إن المال يعاد إلى أصحابه؟" فذكروا له قول كمال الدين، فرده إليه، وقال للرسول: "قل لكمال الدين: أنت تقدر على حمل هذا، وأما أنا فرقبتي رقيقة لا أطيق حمله والمخاصمة عليه بين يدي الله تعالى؛ يعاد، قولا واحدا". فأعاده.[21]

نور الدِّين أول من بنى دارًا للكشف بدمشق، وسمَّاها دار العَدْل، وسببه أنَّ الأُمراء لما قَدِموا دمشق اقتنوا الأملاك، واستطالوا على النَّاس، وخصوصًا أسد الدِّين شيركوه، فكثرت الشكاوى إلى القاضي، فلم يقدر على الانتصاف من أسد الدِّين، فشكاه إلى نور الدين، فأمر ببناء دار العدْل، فاحضر شيركوه أصحابه وديوانه وقال: إنَّ نور الدِّين ما بنى هذه الدار إلا بسببي وَحْدي لينتقم مني، والا فمَنْ هو الذي يمتنع على كمال الدِّين، والله لئن أُحضرت إلى دار العَدْل بسبب واحدٍ منكم لأصلبنَّه، فإن كان بينكم وبين أحدٍ منازعة فأرضوه مهما أمكن، ولو أتى على جميع ما في يدي، فإنَّ خروج أملاكي من يدي أهون عليَّ من أن يراني نور الدين بعين أني ظالم، ويسوِّي بيني وبين آحاد العوام. ففعلوا، وأرضوا الخصوم، فجلس نور الدين في دار العَدْل، وقال للقاضي: ما أرى أحدًا يشكو من شيركوه، فأخبره الخبر، فسجد، وقال: الحمد لله الذي جعل أصحابنا يُنصفون من نفوسهم قبل حضورهم عندنا.[22]

كان يقعد في دار العَدْل في كلِّ أسبوع أربعة أيام أو خمسة ويحضر عنده الفقهاء، ويأمر بإزالة الحاجب والبواب، ويوصل إليه الشيخ الضَّعيف والعجوز الكبيرة، ويسأل الفقهاء عما أَشكل عليه.[23]

أما زهده فالمشهور عنه أنه كان يأكل ولا يلبس ولا يتصرف إلا في ما يخصه من ملك كان قد اشتراه من سهمه من الغنيمة، ومن الأموال المرصدة لصالح المسلمين، يحضر الفقهاء ويستفتيهم في أخذ ما

يحلّ له من ذلك، فيأخذ ما يفتونه بحله، ولا يتعداه إلى غيره، ولم يلبس حريرا ولا ذهبا ولا فضة.[24] كان لا يأكل ولا يَلْبَس ولا يتصرَّف في ما يخصُّه إلا من ملْكٍ اشتراه من سهمه من غنائم الكُفَّار، وكان يحضر الفقهاء، ويستفتيهم في ما يحلُّ له من تناول الأموال، فأفتوه من جهات عيَّنوها، فلم يتعدَّها إلى غيرها، ولم يَلْبَس حريرًا قطُّ ولا ذهبًا ولا فضَّة، ومنع من بيع الخمرة في بلاده، وكان يحدُّ شاربها، والنَّاس عنده سواء في ذلك. [25] كان له عجائز بدمشق وحلب، فكان يخيط الكوافي، ويعمل الساكر للأبواب، ويبيعها العجائز ولا يدري بهنَّ أحد، فكان يوم يصوم يُفْطر على أثمانها.[26]

كان تزوج الخاتون بنت معين الدّين أُنَر، فطلبتْ منه زيادةَ نفقة فغَضب، وقال: قد فرضتُ لها ما يكفيها، والله لا أخوض جهنَّم بسببها، وهذه الأموال ليست لي إنما هي للمُسْلمين، وأنا خازنُهم، فلا أخونهم فيها، ولي بحمص ثلاث دكاكين اشتريتها من الغنائم، قد وهبتها لها، وكان يحصل منها قدر يسير.[27] وحمل إليه من مصر عمامة من القصب الرفيع مذهبة، فلم يحضرها عنده، فوصفت له، فلم يلتفت إليها، وبينما هم معه في حديثها إذ قد جاءه رجل صوفي، فأمر بها له، فقيل له: "إنها لا تصلح لهذا الرجل، ولو أعطى غيرها كان أنفع له»، فقال: أعطوها له، فإني أرجو أن أعوض عنها في الآخرة"، فسلمت إليه، فسار بها إلى بغداد، فأباعها بستمئة دينار مصرية، أو سبعمئة دينار.[28]

ألقاب نور الدين ووفاته

ألقابه التي جاءت من بغداد مع الخِلْعة، ويُخطب له بها على المنابر: اللهم وأَصْلِحِ المولى السُّلْطان الملك العادِلَ العالم، العامل الزَّاهد، العابد الوَرِع المجاهد المرابط، نورَ الدين وعُدَّتَه، ركنَ الإسلام وسَيفَه، قسيمَ الدولة وعمادَها، اختيار الخلافة ومعزّها، رضيَّ الإمامة وأثيرَها، فخر المِلَّة ومجيرها، شمس المعالي وفلكها، سيّد ملوك الشرق والغرب وسُلْطانَها، محصي العَدْل في العالمين، مُنْصف المظلومين من الظَّالمين، ناصر دولة أمير المؤمنين، وذكر ألقابًا أخرى. ثم إنَّ نور الدّين أسقطَ الجميع قبل موته، وقال: يقال: اللهم وأَصْلِحْ عبدَك الفقير محمود بن زنكي.[29]

وكانت وفاته يوم الأربعاء حادي عشر شَوَّال، ودفن بالقَلْعة، ثم نُقِل إلى مدرسته التي أنشأَها[30] مجاورة للخوَّاصين، ويقال: إنَّها كانت دار عمر بن عبد العزيز – رضي الله عنه – وقيل: دار سليمان بن عبد الملك، وعاش ثمانيَ وخمسين سنة، وكانت أيامه ثمانيَ وعشرين سنة وستة أشهر.[31]

المراكز العلمية لدراسة الفقه في عهد نور الدين

إن الدارس للفقه في ذلك العصر كان يتوجه إلى المساجد والمدارس والمكتبات، وقد ذكرت في المبحث السابق أن نور الدين بنى المدارس والجوامع والمساجد بحلب وحمص ودمشق وبعلبك، وسأتناولها على التفصيل واحداً واحداً.

المساجد

اهتم نور الدين بالمساجد اهتماماً عظيماً، فقد كان لها دور عظيم عبر التاريخ الإسلامي، فهي أول وأهم أمكنة التعليم على الإطلاق وقد كان المسجد بالإضافة إلى كونه محل عبادة المسلمين يجتمعون فيه خمس مرات في اليوم لأداء الصلوات المفروضة، هو المدرسة الأولى لتعلم والتعليم، وظل المسجد قاعدة مهمة للتربية والتعليم على مدار العصور الإسلامية. عند الحديث عن المساجد في عهد نور الدين نجد ما كُتب في كتب التاريخ من أنه ما كان يصل إليه من هدايا الملوك وغيرهم يبعث به إلى القاضي، فيبيع هذه الهدايا ويعمر بها المساجد المهجورة، ولا يتناول منها شيئًا، كما أنه أمر بإحصاء مساجد دمشق، فأُحصيت، فكانت مئة مسجد، فأوقف الأوقاف على جميعها، ومن المساجد: جامع قلعة دمشق، ومسجد عطية بباب الجابية، ومسجد الرَّمَّاحين، ومسجد سوق الصَّاغة، ومسجد دار البطيخ، ومسجد العباسي، ومسجد بجوار بيعة اليهود، ومسجد الكشك، وأشياء أُخر.[32]

ويروي العماد الأصفهاني أن نور الدين أمر بإحصاء ما في محلات دمشق من مساجد هجرت أو خربت فأناف على مئة مسجد فأمره بعمارة ذلك كله وعين له أوقافاً.[33] وأصلح أحوال المسجد الأموي وأضاف إلى أوقافه المعلومة الأوقاف التي لا تعرف شروط واقفيها وسماها مال المصالح.[34] أما أشهر المساجد التي بناها فهو المسجد النوري بالموصل الذي يذكره ابن الأثير بقوله: فجامعه في الموصل إليه النهاية في الحسن والإتقان.[35]

كذلك بنى نور الدين جامعه بالمؤصل، وفوَّض عمارته إلى الشيخ عمر المِلَّاء، وكان من الصَّالحين، فقيل له: إنَّه لا يصلح لمثل هذا. فقال: إذا ولَّيتُ بعضَ الأجناد أو بعض العمال فلا يخلو من الظُّلم، وبناءُ الجامع لا يفي بظُلْم رجلٍ مُسْلم، وإذا ولَّيتُ مثل هذا الشيخ غَلَبَ على ظنِّي أنَّه لا يظلم، فإذا ظلم كان الإثمُ عليه لا عليَّ.[36] كذلك كان مكان الجامع النُّوري خَرِبة واسعة ما شَرَعَ أحدٌ في عمارتها إلا وقصر عمره، فأشار عمر على نور الدين بعمارتها جامعًا، فاشتراها وأنفق عليها أموالًا كثيرة، يقال ستين ألف دينار، ويقال: ثلاثمئة ألف دينار، فتمَّ في ثلاث سنين، وجاء نور الدِّين إلى المؤصل وهي المرة الأخيرة، فصلَّى فيه، ووقف عليه قرية بالمؤصل، ورتَّب فيه الخطيب والمؤذِّنين والحُصُر والبُسط وغيرها، ثم دخل عمر المِلَّاء على نور الدين وهو جالسٌ على دِجْلة، فترك بين يديه دساتير الخَرْج، وقال: يا مولانا

أَشْتهي أن تنظر فيها، فقال له نور الدين: يا شيخ نحن عملنا هذا لله تعالى، دع الحساب إلى يوم الحساب، ثم رمى بالدَّساتير في دِجْلة.[37] وبنى جامعا في حماه على نهر العاصي وصفه ابن الأثير بأنه من أحسن الجوامع وأنزهها. وأصبحت المساجد في عصره من أهم المراكز العلمية[38]

ومن أهم هذه المساجد:

المسجد الكبير في حلب؛ ذكر ابن شداد أن الذي بنى هذا المسجد الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك، وفي شعبان 564هـ في أيام الملك العادل نور الدين محمود قام الإسماعيلية بإحراق هذا الجامع، فقام الملك نور الدين وأمر ببنائه واجتهد في عمارته، أما عن النشاط الفقهي في هذا المسجد، فقد أنشأ نور الدين زاويتين في هذا الجامع، إحداهما لتدريس الفقه على المذهب المالكي، والأخرى لتدريس الفقه الحنبلي. وقد كان لهاتين الزاويتين نشاط علمي ملموس خلال تلك الفترة.[39]

وذكر النعيمي عدداً من المساجد التي بناها نور الدين في عهده،[40] منها:

- مسجد الكشك الذي فوق الأعمدة مسجد كان دارا فبناه الملك العادل نور الدين رحمه الله تعالى مسجدا وبنى له منارة له إمام ومؤذن ووقف.
- مسجد دوس، مسجد معلق فوقية فيه مغارة بناه نور الدين رحمه الله تعالى.
- مسجد ابن البياعة، مسجد آخر في سوق الغزل فيه شجرة زيتون وعنده سقاية جدده نور الدين رحمه الله تعالى.
- مسجد في دار الحديث أنشأها نور الدين رحمه الله تعالى في محلة حجر الذهب.
- مسجد في الدركاه أنشأه نور الدين رحمه الله تعالى يقال أنه مسجد الضحاك بن قيس رضي الله تعالى عنه فيه عريش وسقاية.
- مسجد عند المائدة الحجر في طريق الغياض بناه نور الدين الشهيد رحمه الله تعالى.
- مسجد الدهان: مسجد عند عقب جسر باب الحديد تحت القلعة أنشأه نور الدين رحمه الله تعالى.
- جامع قلعة دمشق، قال العز ابن شداد: وفي القلعة المحروسة المسجد الكبير الجامع الذي أنشأه نور الدين الشهيد رحمه الله تعالى فيه منارة وبركة وعلى بابه سقاية وله إمام ومؤذن ووقف.
- جامع داريا الكبرى، قال بدر الدين الأسدي في كتابه الكواكب الدرية في السيرة النورية في سنة خمس وستين وخمسمئة: وفيها أمر نور الدين بعمارة جامع داريا القائم الآن وكان قديما عند أبي سليمان الداراني فأحرقه الفرنج لما تولوا على داريا أيام مجير الدين آبق فعمره نور الدين في هذه السنة وجعله وسط البلد وعمر بها أي بداريا أيضا مشهد أبي سليمان الداراني.

هذا على سبيل المثال لا الحصر في اهتمام نور الدين بالمساجد وتفعيل دورها العلمي والتربوي، فكان لها آثار ملموسة في الازدهار العلمي وتطوره في العهد الزنكي، رغم وجود المدارس وانتشارها بشكل

واسع في ذلك العهد. كما ينبغي ذكر أنه لا يكاد يخلو مسجد من هذه المساجد من مكتبة ضخمة تضم عدداً كبيراً من الكتب في مختلف العلوم والتخصصات وتوقف هذا المكتبات على المساجد ليرجع لها الطلاب والباحثون. وهكذا كانت المساجد من المؤسسات المهمة في المجتمع الإسلامي وهي بمنزلة المعاهد العلمية المشعة التي نهضت بمختلف العلوم في هذا العهد أسوة بالعهود الإسلامية السابقة، وكانت تلك المساجد تتميز بتكافؤ الفرص بين الطلاب دون تمييز لغني منهم على فقير، فزاد إقبال طلبة العلم عليها، ولم يقف الفقر حائلاً أمام طلب العلم فيها بل على العكس وجد الكثير من الأوقاف لمن يرتاد هذه المساجد معلماً أو متعلماً حتى يتفرغوا لطلب العلم دون أن يشغلهم طلب العيش عن ذلك.[41]

وكانت المساجد في ذلك العصر تزخر بحلق الفقه، حيث كان مجلس الفقهاء ودروسهم تتمركز في هذه المساجد، لذلك رأينا اهتماما واضحاً من نور الدين ببناء المساجد وترميمها، ووقف الأوقاف عليها، بل وتزويدها بمكتبات ضخمة لتكون زاداً للفقيه والطالب في طلبه للعلم.

المدارس

لما تولى نور الدين حكم الدولة الزنكية شهدت حركة بناء المدارس انتشارا واسعا فقد أخذ في إنشائها واستدعى لها كبار العلماء من مختلف الأقطار الإسلامية وبنى لهم الكثير من المدارس في شتى أرجاء مملكته، وكان يهدف من ذلك إلى دعم المذهب السني، ومقاومة مذهب التشيع في المنطقة.

المدارس في حلب

بدأت الحركة العلمية تبرز في حلب في بداية حكم نور الدين محمود لها في عام 541هـ والذي ركز نشاطه منذ تسلمه الحكم في تنفيذ سياسته الرامية إلى الوقوف بشدة أمام المذهب الشيعي الذي زاد انتشاره آنذاك في حلب فحرص على تقويضه وإحلال المذهب السني مكانه، ما تطلب منه القيام بجهود علمية بارزة تجاه ذلك. كان منها تشجيع العلم والعلماء عن طريق إنشاء الكثير من المدارس على مختلف المذاهب السنية وتوجيه التعليم وجهة سنية عن طريق تشجيع العلوم الشرعية، وقد جلب عدداً من العلماء الأكفاء لتولي هذه المهمة، وبهذه السياسة نجح نور الدين في انقاذ حلب من تأصل الفكر الشيعي بها وتمكن من تحويلها إلى مركز من مراكز السنة بعد أن كانت قاعدة المذهب الشيعي في المنطقة.[42] ومن أبرز المدارس التي أنشئت في حلب:

المدارس الشافعية:

1. **المدرسة الزجاجية** تعد من المدارس السابقة على الحكم الزنكي فقد أنشأها بحلب بدر الدولة على بناء أول مدرسة بحلب لم يمكنه الحلبيون من ذلك لغلبة نزعة التشيع فيهم، فكان كلما بنى فيها شيئاً في النهار أخربوه ليلاً إلى أن أعياه ذلك فأحضر الشريف زهرة بن علي الحسيني وأوكل إليه أمر

الإشراف على بنائها ليكف عنه الشيعة، فلازم الشريف زهرة بناء تلك المدرسة حتى تم الانتهاء منها. وهذا يدل على مدى تغلغل هذا المذهب في حلب في تلك الفترة التي سبقت الحكم الزنكي لها. ولما ملك الأتابك عماد الدين زنكي بن قسيم الدولة آق سنقر حلب في سنة 522هـ نقل والده وكان مدفوناً في قرنبيا، فدفنه في شمالي هذه المدرسة، وزاد عماد الدين في وقفها للصرف على القراء والمتفقهين المرتبين بها. وكان أبرز المدرسين في هذه المدرسة في العهد الزنكي: شرف الدين أبو طالب عبد الرحمن الحلبي المتوفي 561هـ، إذ ذكر ابن شداد أنه لما اكتمل البناء في هذه المدرسة فوض منشئها أمر التدريس والنظر بها للشيخ شرف الدين مدرساً بها إلى أن توفى سنة 561هـ وتولى التدريس بها بعداه حفيداه مجد الدين طاهر بن نصر بن جهبل المتوفي 597هـ وأخوه زين الدين عبد الملك بن نصر بن جهبل المتوفي 590هـ وكانا من العلماء المتميزين والفضلاء المبرزين.[43]

2. **المدرسة النِضّريَة (النورية)**: أنشأها الملك العادل نور الدين محمود سنة 544هـ، وكان الشيخ قطب الدين النيسابوري وهو أول من وُلي التدريس في هذه المدرسة وكان قدم إليها من دمشق، ثم ولي تدريسها بعده مجد الدين طاهر بن جهبل المتوفي سنة 597هـ، ولم يزل مدرساً بها إلى أن نقل إلى القدس الشريف فدّرس به إلى أن توفي.[44]

3. **المدرسة العصرونية**: كان موقع هذه المدرسة في الأصل دار لأبي الحسن علي بن أبي الثُريّا وزير بني مِرداس أصحاب حلب ولما جاء نور الدين محمود إلى حلب اشترى هذه الدار وحوّلها مدرسة، وجعل فيها مساكن للمدرسين بها من الفقهاء وذلك سنة 550هـ، وبعد أن أتّم نور الدين محمود بناء هذه المدرسة استدعى لها من نواحي سنجار الإمام شرف الدين عبد الله بن أبي عصرون المتوفي سنة 585هـ وفوّض إليه مهنة التدريس بها والنظر في أوقافها، وهو أولّ من درّس بها فعُرفت به، ونسبت إليه، ولم يزل الإمام شرف الدين بن أبي عصرون يُدّرس في هذه المدرسة وينظر أوقافها إلى أن عاد إلى دمشق سنة 570هـ، ولما خرج إلى دمشق استخلف فيها ولده نجم الدين أبو البركات عبد الرحمن وظل هذا حتى ولي قضاء حماة فغادر حلب. وممن أقام في هذه المدرسة الإمام الحافظ حجة الدين محمد بن أبي محمد بن محمد بن ظفر الصّقلّيّ المتوفي سنة 565هـ، فقد ذكر أنه حلّ بحلب وأقام بالمدرسة العصرونية وصنّف كتباً حسنة، فلما وقعت الفتنة بين الشيعة والسنة وأظنها فتنة سنة 552هـ، ونُهبت كتبه في ما نُهب وخسر جزءاً من مؤلفاته القيمّة، فرحل إلى حماة وأقام بها حتى وفاته.[45]

4. **المدرسة الشرفية**: أنشأها الشيخ الإمام شرف الدين أبو طالب عبد الرحمن الحلبي المعروف بابن العجمي المتوفي سنة 561هـ وقد صرف شرف الدين على بنائها ما نيف على أربعمئة ألف درهم وأوقف عليها أوقافا جليلة.[46]

5. **المدرسة الشُعيْبيَّة**: كان موقع هذه المدرسة مسجداً يقال إنه أول ما اختطه المسلمون عند فتح حلب من المساجد، وعُرف هذا المسجد بأبي الحسن الغضائِرِيّ المتوفي سنة 313هـ فلما ملك نورالدين

محمود حلب وأنشأ بها المدارس وصل الشيخ شُعيب الأندلس إلى حلب فصيّر له هذا المسجد مدرسة وجعله مدرساً بها فعرفت به، ولم يزل الشيخ شعيب مُدرّساً بها إلى أن توفي بطريق مكة سنة 596هـ.[47]

المدارس الحنفية:

1. **المدرسة الحلاّوية (الحَلَويّة)**: يذكر ابن شداد أن هذه المدرسة كانت كنيسة من بناء هيلاريني أم قسطنطين فلمّا حاصر الصليبيون حلب سنة 518هـ قاموا بقطع الأشجار ونبشوا قبور الموتى، وأحرقوا من فيها، عمد القاضي أبي الفضل بن خشاب الحلبي إلى أربع كنائس داخل حلب، وصَيّرها مساجد وكانت هذه المدرسة تُعرف قديماً بمسجد السّراجين، فلمَّا ملك نور الدين محمود مدينة حلب جعل هذا المسجد مدرسة، وأنشأ فيه مساكن يأوي إليها الفقهاء وإيواناً للدروس، وكان مبدأ عمارتها في سنة 544هـ، وقد جلب نور الدين إلى هذه المدرسة من أفامية مجموعة من الرخام الشفّاف "الذي إذا وضع تحته ضوء أبان من وجهة ووصفه فيها، وكانت هذه المدرسة من أعظم المدارس صيتاً وأكثرها طلبة وأغزرها جامِكِيّة، وكان من شروط الواقفة: أن يحمل في كل شهر من رمضان من وقفها ثلاثة آلاف درهم للمدرس يصنع بها للفقهاء، طعاماً، وفي ليلة النصف من شعبان في كل سنة حلوى معلومة وفي الشتاء ثمن بياض لكل فقيه شيء معلوم وفي أيام شرب الدواء من فصلي الربيع والخريف ثمن ما يحتاج إليه من دواء وفاكهة، وفي المولد أيضاً الحلوى وفي الأعياد ما يرتفقون به فيها من دراهم معلومة وفي أيام الفاكهة ما يشترون به بطيخاً ومشمشاً وتوُتا.[48]
2. **المدرسة المُقَدَّميّة**: أنشأها عزّ الدين عبد الملك المقدّم وكانت إحدى الكنائس الأربع التي صيّرها القاضي أبو الحسن بن الخشّاب مساجد في سنة ثماني عشرة وخمسمئة وأضاف إليها داراً كانت إلى جانبها وابتُدئ في عمارتها في سنة خمس وأربعين وخمسمئة. وأوّل من درّس بها برهان الدين أبو العبّاس أحمد بن عليّ الأصوليّ. ثمّ وليها بعده السيّد الشريف الإمام العالم افتخار الدين عبد المطّلب بن الفضل الهاشميّ المقدّم ذكره في المدرسة الحلاّويّة ولم يزل بها إلى أن تُوفيّ. ووليها بعده ولده أبو المعالي الفضل ولم يزل بها إلى أن تُوفيّ. وتولاّها بعده شهاب الدين أحمد بن يوسف بن عبد الواحد الأنصاري ولم يزل بها إلى أن تُوفيّ. ووليها بعده افتخار الدين أبو المفاخر محمّد بن تاج الدين أبي الفتح يحيى بن القاضي أبي غانم محمّد بن أبي جرادة المعروف بابن العديم ولم يزل بها مدرساً إلى أن قُتل عند استيلاء التتر على حلب.[49]
3. **المدرسة الحدّادِيّة (الحدادين)**: ذكر ابن شداد أن منشئ هذه المدرسة هو حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين ابن أخت صلاح الدين، وأنها كانت من الكنائس الأربع التي ذكرنا خبر تحويلها إلى مساجد سنة 518هـ.[50]

المدارس في دمشق

كانت أول مدرسة أشارت المصادر إلى إنشائها في دمشق سنة 491هـ وهي المدرسة الصادرية الحنفية ثم تلا ذلك إنشاء الكثير من المدارس، في الحكم الزنكي لدمشق (549–569هـ) وقد توزعت تلك المدارس على المذاهب السنية الأربعة، ولكن المذهب الحنفي والشافعي هما السائدان على مدارس دمشق في ذلك العهد يليهما المذهب الحنبلي، وأخيراً المذهب المالكي.

المدارس الحنفية:

1. **المدرسة الصادرية:** أنشئت هذه المدرسة على يد أمير شجاع الدولة صادر بن عبد الله سنة491هـ داخل باب البريد مما يلي الباب الغربي للجامع الأموي وهي أول مدرسة أنشئت في دمشق.[51]
2. **المدرسة الطرخانية:** قال ابن عساكر في تعداد مساجد دمشق: مسجد بالمدرسة المعروفة بدار طرخان وهي كانت قديماً للشريف أبي عبد الله بن أبي الحسن فوقفها سنقر الموصلي وجعلها مدرسة لأصحاب أبي حنيفة.[52]
3. **المدرسة المُعينيّة:** ذكرها ابن عساكر ضمن مساجد دمشق فقال: مسجد في المدرسة المعينيّة في قصر الثقفيين وقال ابن شداد بحصن الثقفيين أنشأها معين الدين أنر أتابك الأمير مجير الدين آبق آخر الحكام البوريين بدمشق، وذكر الصفدي: أن معين الدين قد بنى هذه المدرسة للشيخ أبي المظفر محمد بن أسعد الفقيه الحنفي المعروف بابن الحكيم العراقي مُدّرسي الصادرية والطرخانية المتوفى 567هـ.[53]
4. **المدرسة النُورية الكبرى:** ذكر كل من أبي شامة وابن شداد أن هذه المدرسة تقع بخط الخّواصين، وأن الذي بناها هو نور الدين محمود زنكي وقد شاهد الرحالة الأندلسي ابن جبير هذه المدرسة في زيارته لدمشق سنة 580هـ ووصفها بأنها من أحسن مدارس الدنيا منظراً وأنها قصر من القصور الأنيقة. وقد نالت هذه المدرسة مكانة علمية كبيرة في ذلك العهد، إذ كانت في مقدمة مدارس دمشق، وبخاصة في عصر منشئها الملك نور الدين محمود والسنوات التي أعقبتها، وحينما تذكر حركة التعليم في بلاد الشام في تلك العصور يُشار إلى هذه المدرسة في مقدمة دور التعليم، وتتضح أهمية هذه المدرسة في الأثر العلمي الذي قام به شيوخها ومدرسوها ومُعيدوها، وفي الأعداد الوافرة من الطلاب الذين تخرجوا منها إضافة إلى ما قامت به تلك المدرسة من نشاط سياسي واجتماعي كبير في ذلك العهد، واستقراء الكتابة المسجلة على الحجر الذي يكون العتبة العليا لباب المدرسة يتبين لنا حجم الأوقاف التي أوقفها نور الدين على هذه المدرسة للإنفاق على ريّعه على الطلاب والمدرسين، والعاملين بالمدرسة إنفاقاً سخياً متواصلاً ونص هذه الكتابة كالآتي: بسم الله الرحمن الرحيم أنشأ هذه المدرسة المباركة العادل الزاهد نور الدين أبو القاسم محمود بن زنكي آق سنقر ضاعف الله ثوابه، ووقفها على أصحاب الإمام سراج الأمة أبي حنيفة رضي الله عنه، ووقف عليها، وعلى الفقهاء،

والمتفقهة بها جميع الحّمام المستجد بسوق القمح. والحّمامين المستجدين بالوراقة ظاهر باب السلامة والدار المجاورة والريع من بستان الجوزة بالأرزة، والإحدى والعشرين حانوتا خارج باب الجابية، والساحة الملاصقة لها من الشرق، والستة حقول بداريا، على ما نُص وشُرط فكتب الوقف رغبة في الآخرة، وتقدمه بين يديه يوم الحساب: فمن بّدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم.[54]

5. **المدرسة الخاتونية البرّانية:** كانت هذه المدرسة مسجداً أوقفته الست زمرد خاتون أم شمس الملوك أخت الملك دُقاق بن تُتُش المتوفاة سنة 557هـ، وتاريخ وقفه سنة 526هـ على الشيخ أبي الحسن علي البلخي المتوفي سنة 548هـ، وقد ذكر الذهبي أن الست زُمُرّد خاتون على قدر من الثقافة والعلم واستنسخت الكتب وحفظت القرآن وبنت الخاتونية بصنعاء دمشق، ثم تزوجها أتابك زنكي فبقيت معه تسع سنين، فلما قُتل حجّت وجاورت بالمدينة ودفنت بالبقيع. [55]

المدارس الشافعية:

1. **المدرسة الأمِينيّة:** ذكر ابن شداد أن هذه المدرسة من بناء أمين الدولة ربيع الإسلام، وزاد عليه النعيمي أنها أول مدرسة بُنيت للشافعية بدمشق بناها أتابك العساكر بدمشق وكان يقال له أمين الدولة وكان مبدأ التدريس بها سنة 514هـ على ما ذكر الذهبي في ترجمته لجمال الإسلام أبي الحسن علي بن المسلم السُلمي الدمشقي الشافعي مدرس الغزاليّة والأمِينيّة ومفتي الشام في عصره المتوفي سنة 533هـ.[56]
2. **المدرسة العمادية:** بناها نور الدين محمود رحمه الله تعالى برسم خطيب دمشق أبي البركات بن عبد الحارثي وهو أول من درّس بها، ونسبت للعماد الأصفهاني لتدريسه بها بعده وقد ذكر العماد خبر تدريسه في هذه المدرسة سنة 567هـ فقال: وفي رجب من هذه السنة فوّض إليّ المدرسة التي بحضرة حمام القصير، وعولّ علي في التدريس بها والنظر في أوقافها.[57]
3. **المدرسة العصورنية:** تنسب هذه المدرسة للفقيه العلاّمة قاضي القضاة شرف الدين عبد الله بن محمد ابن أبي عصرون المتوفي سنة 585هـ وقد بنى له مدارس كثيرة بحلب وحماة وحمص وبعلبك وغيرها وقد وردت نصوص تفيد أن القاضي شرف الدين بن أبي عصرون قد بنى لنفسه بدمشق، يقول عنه ابن خلكان: توفي ليلة الثلاثاء الحادية عشر من شهر رمضان سنة خمس وثمانين وخمسمئة بمدينة دمشق، ودفن في مدرسته التي أنشأها داخل البلد وهي معروفة به.[58]

المدارس المشتركة بين الحنفية والشافعية:

1. المدرسة الأسِديّة: تنسب هذه المدرسة للأمير أسد الدين شيركوه، أحد أمراء نور الدين الكبار والمتوفى سنة 564هـ. وقد درس في هذه المدرسة عدد من المدرسين على المذهبين: الحنفي والشافعي ذكر

النعيمي منهم خلال العهد الزنكي: الواعظ الحنفي المعروف بابن الشاعر نزيل القاهرة سنة 584هـ. وكان قد قدم دمشق وسمع الحافظ ابن عساكر وغيره، فحدّث وأفاد ودرّس بالأسدية.[59]

المدارس الحنبلية:

1. **المدرسة الحنبلية الشريفية:** ذكر ابن شداد أنها من إنشاء سيف الإسلام أخ صلاح الدين يوسف بن أيوب.[60]
2. **المدرسة العمرية:** سمّاها ابن شداد مدرسة الشيخ أبي عمر بالجبل في وسط دير الحنابلة، وذكر أن بانيها و واقفها هو الشيخ أبو عمر الكبير، والد قاضي القضاة شمس الدين الحنبلي وكان من الأولياء المشهورين، وذكر ابن طولون أنه إلى الشيخ أبي عمر وإلى ولده أحمد بن قدامه المتوفي سنة 558هـ يرجع سبب كثرة أتباع المذهب الحنبلي بدمشق وبلاد الشام، فوالد الشيخ أبي عمر كان قد فرّ بدينه وعياله من نابلس بفلسطين عقب استيلاء الفرنجة على القدس، ووصلوا إلى دمشق في سنة 551هـ ونزلوا في سفح جبل قاسِيّون بمسجد أبي صالح، ولهذا عرفوا بالصالحين، وأقاموا في السفح منزلاً كثير الحجرات عُرف بدير الحنابلة، ثم تتابع البناء وعُمرت تلك الأراضي ودُعيت بالصالحية نسبة إلى بني قدامة الصالحين لما عُرِف منهم من علم وتقى وصلاح وكان آل المقدسي عندما هاجروا إلى الشام استقرّ نزلهم في الجبل وكان الناس يزورن الشيخ أحمد بن محمد بن قدامه وكان السلطان نور الدين الشهيد يأتي إلى زيارته.[61]

المدارس المالكية:

1. **المدرسة النورية الصلاحيّة:** ذكر الإربلي: المدرسة النورية ضمن مدارس الطائفة المالكية بدمشق ولكنه لم يحدد موقعها وأثبت ابن عساكر المدرسة النورية في حديثه عن مساجد دمشق فقال: مسجد في المدرسة النورية التي أوقفها نور الدين على المالكية في حجر الذهب.[62]

هذه هي أهم المدارس التي كانت في دولة نور الدين وهي على سبيل المثال لا الحصر.

المكتبات

تعد المكتبات القاعدة التي تستند عليها مختلف الجهود الثقافية في أي عصر من العصور، أو مجتمع من المجتمعات لدرجة أنه يمكن اتخاذها في كثير من الأحيان المعيار الذي يُحكم به على تقدم هذا المجتمع أو ذلك العصر وقد كانت المكتبات بمنزلة دور التعليم في شتى العصور الإسلامية، وهيئات ينفق عليها الملوك، والأمراء، والأثرياء، والعلماء، لنشر العلم بين الناس، خصوصاً في وقت لم يكن للطباعة أي وجود، وكانت الكتب تُنسخ على أيدي نسّاخ متخصصين في هذا العمل، فكان يتعذر على الكثيرين من طلاب العلم اقتناء الكتب لقّلة عدد نسخها وارتفاع أسعارها، لأنها تُنسخ باليد، ومن هنا نشأت فكرة جمع

الكتب في مختلف ميادين المعرفة في مكان واحد كي يسهل على طالب العلم الاطلاع عليها والاستفادة منها، وهذا ما عُرف بـ "خزائن الكتب أو المكتبات"، وقد اهتم الزنكيون – كغيرهم – بتأسيس المكتبات في المساجد والمدارس، وغيرها من دور التعليم القائمة في ذلك العهد وقلماّ نجد داراً تعليمية تخلو من مكتبة تتبعها مزودة بمجموعة من الكتب التي يرجع إليها الطلاب والباحثون في مختلف التخصصات تبعاً لحجم تلك الدار، والأوقاف التي أوقفت عليها، ولا أدل على ذلك الاهتمام من سياسة نور الدين محمود الذي أمر بتزويد كل هيئة تعليمية بمكتبة قيمة، وجعل عليها وقفاً كبيراً يصرف منه على المكتبة والمشتغلين بها وقد قال ابن عساكر عن نور الدين: إنه حصّل الكثير من كتب العلوم ووقفها على طلابها، وأقام عليها الحفظة.[63]

الفقهاء في عهد نور الدين محمود

أهم أعمال الفقهاء في عهد نور الدين

لما مات الحافظ المرادي، كان جماعة الفقهاء قسمين: العرب والأكراد؛ فمنهم من مال إلى المذهب، وأرد أن يستدعي الشيخ شرف الدين ابن أبي عصرون، وكان بالموصل، ومنهم من مال إلى علم النظر والخلاف، وأراد أن يستدعي القطب النيسابوري، وكان قد جاء زوار بيت المقدس ثم عادوا إلى بلاد العجم؛ فوقع بينهم كلام بسبب ذلك ووقعت فتنة بين الفقهاء. فسمع نور الدين بذلك فاستدعى جماعة الفقهاء إلى القلعة بحلب وخرج إليهم مجد الدين – يعني ابن الداية – عن لسانه وقال: نحن ما أردنا ببناء المدارس إلا نشر العلم ودحض البدع من هذه البلدة وإظهار الدين، وهذا الذي جرى بينكم لا يحسن ولا يليق. وقد قال المولى نور الدين: نحن نرضى الطائفتين ونستدعي شرف الدين ابن أبي عصرون وقطب الدين النيسابوري. فاستدعاهما جميعاً، وولى مدرسة ابن أبي عصرون لشرف الدين ومدرسة النفرى لقطب الدين.[64]

عمل العلماء في العهد الزنكي على جمع آثار من سبقهم كلّ بحسب مذهبه الذي ينتمي إليه من المذاهب السنية الأربعة الحنفي، والشافعي، والحنبلي، والمالكي. ورجحوا بين الروايات وخّرجُوا على الأحكام، وبنوا فتاواهم على شتى المسائل والفروع من أصول أئمتهم وقواعدهم وفتاواهم، وكانت الدولة الزنكية تدعم المذاهب السنية الأربعة واستطاعت تلك المذاهب السنية أن تضيق الخناق على الفكر الشيعي الرافضي في الدولة الزنكية، وأصبح الفكر السني هو المذهب السائد في بلاد الشام.[65]

وقد برز خلال العهد الزنكي علماء أجلاء في الفقه وأصوله كان لبعضهم أبحاث رائعة ودراسات جليلة، ونظرات صائبة في دراسة الفقه الإسلامي وأصوله. وقد اهتم الفقهاء بفروع أخرى من العلوم، وركزوا فيه دراساتهم وكان أشهر هذه الفروع "**الفرائض**" الذي يُعد باباً من أبواب الفقه نال اهتماماً خاصاً

من العلماء في هذا العهد لأهميته وكثرة الاحتياج إليه، حتى أصبح علماً قائماً بذاته، وموضوعه: البحث عن أحوال قسمة التركة بين مستحقيها على فروض مقّدرة في كتاب الله عز وجل وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وهذا الباب من أصعب أبواب الفقه، وممن برز في علم الفرائض في العهد الزنكي: الإمام الحافظ حجة الله **أبو عبد الله محمد بن أبي محمد بن محمد بن ظفر المكي الصِقلّي** المتوفى سنة 565هـ وكان قد صنف تصانيف كثيرة في علوم كثيرة كان منها أرجوزة في الفرائض.[66]

اهتمام نور الدين بالمذهب الشافعي رغم كونه حنفياً في حلب

كان نور الدين محمود يتبع مذهب الإمام أبي حنيفة إلا أنه أنشأ للشافعية في حلب ثلاث مدارس هي: النفرية والعصرونية والشعيبية وأسند الأولى إلى أستاذ من أساتذة النظاميات، والثانية إلى تلميذ من أنبغ من خرجت نظامية بغداد وهو شرف الدين بن أبي عصرون، وفي الوقت الذي لم ينشئ فيه لأهل مذهبه إلا مدرسة واحدة وهي الحلاوية السالفة الذكر. لاعتقاده بأن علماء المدارس النظامية لهم القدرة على الإحياء السني، وقمع شبهات المبتدعة من الشيعة الرافضة أكثر من غيرهم وذلك بسبب خبرة المدارس النظامية وخريجيها على مواجهة المد الباطني الشيعي وقدرتها على كشف باطلها بأسلوب علمي رصين إضافة إلى اهتمام المدارس النظامية بنشر العلم الشرعي والإحياء السني الكبير ولأن البيئة الحلبية تحتاج إلى ذلك النوع من علماء أهل السنة والذي يقوي هذا المذهب أن نور الدين لم يسلك سبيلاً مشابهاً لهذا المسلك في دمشق بعد أن استولى عليها، إذ كانت حفاوته بمدارس الحنفية أكثر، فأنشأ فيها أشهر مدارسه وهي: النورية الكبرى، كما بنى للحنفية مدرسة أخرى بجامع القلعة عرفت بالنورية الصغرى وأما الشافعية فإنه أسس لهم مدرستين أو ثلاثاً على خلاف بين المؤرخين ويبدو أن مدينة حلب كانت في حاجة ماسة إلى جهود أهل السنة من المذهب الشافعي المسلحين بدراسة الجدل وعلم الكلام ليواجهوا الشيعة مواجهة فكرية تشد من أزر المواجهة السياسية لذا رأينا نور الدين يكثر من بناء مدارس الشافعية لحلب ويستقدم لها نوعية خاصة من الأساتذة ليتولوا مهمة التدريس بها والإشراف عليها، وهذا ما لم يحفل به كثيراً في دمشق حيث النفوذ السني غالب، فصرف همته إلى العناية بفقهاء مذهبه،[67] وهذا إنما يدل على فطنة وذكاء نور الدين في كل خطوة ينفذها، وأنه لا يتصرف بعشوائية بل بترتيب وتخطيط ليسعى نحو تحقيق هدفه المنشود بالطرق والوسائل المتاحة كافة.

أشهر العلماء والفقهاء في عهد نور الدين

في المذهب الشافعي: وممن برز في هذا المذهب، **الإمام القاضي أبو الفضل كمال الدين محمد بن أبي عبد الله بن أبي المظفر القاسم الشهرزوري** المتوفى سنة 572هـ[68]، وقد وصف بأنه كان فقيهاً أديباً شاعراً كاتباً فكِه المجالسة، يتكلم في الخلاف والأصول. هذا بالإضافة إلى شهرته في السياسة وأصول الحكم

والكرم، كما كان كثير الصدقات والمعروف، وأوقف أوقافاً كثيرة بالموصل ونصيبين ودمشق على أعمال الخير وطلب العلم، وقد اشتهرت مدرسته بالموصل "الكمالية القضوية" وكان رأس المدرسين فيها، إذ خصصها لتدريس الفقه الشافعي.[69]

ومن **علماء الشافعية البارزين** في هذا العهد **الإمام قطب الدين مسعود بن محمد النيسابوري** المتوفي سنة 578هـ[70] قال عنه السبكي: كان إماماً في المذهب الشافعي والخلاف والأصول والتفسير والوعظ أديباً مناظراً أما أبرز جهوده في علم الفقه، فتمثل في مصنفه الكبير "كتاب الهادي " في الفقه، والذي قال عنه ابن خلكان: وهو مختصر نافع لم يأت فيه إلا بالقول الذي عليه الفتوى.[71] وكان بعض أكابر الأمراء قد حسد قطب الدين النيسابوري، الفقيه الشافعي، وكان قد استقدمه نور الدين من خراسان، وبالغ في إكرامه والإحسان إليه؛ فحسده ذلك الأمير، فنال منه يوما عند نور الدين. فقال له: يا هذا إن صح ما تقول فله حسنة تغفر كل زلة تذكرها وهي العلم والدين. وأما أنت وأصحابك ففيكم أضعاف ما ذكرت وليست لكم حسنة تغفرها، ولو عقلت لشغلك عيبك عن غيرك؛ وأنا أحتمل سيئاتكم مع عدم حسناتكم، أفلا أحتمل سيئة هذا، إن صحت، مع وجود حسنته علي؟! إنني والله لا أصدقك في ما تقول، وإن عدت ذكرته أو غيره بسوء لأؤدبنك. فكف عنه. قال ابن الأثير: هذا والله هو الإحسان والفعل الذي ينبغي أن يكتب على العيون بماء الذهب.[72]

وممن برز في علم الفقه الشافعي أيضاً: الإمام **شرف الدين عبد الله بن أبي عصرون** المتوفى سنة 585هـ وكان من أعيان الفقهاء في ذلك العهد، شارك في تدريس الفقه الشافعي في الكثير من المدارس الزنكية، وصنّف كُتباً كثيرة منها: "صفوة المذهب من نهاية المطلب" وهو في سبعة مجلدات وكتاب "الانتصار" لمذهب الشافعي في أربعة مجلدات وكتاب المرشد في مجلدين، وكتاب "الذريعة في معرفة الشريعة" في مجلد واحد وكتاب "مآخذ النظر" وكتاب "الإرشاد المغرَب في نصرة المذهب" ولم يكمله، وذهب في ما ذهب له بحلب.[73]

في المذهب الحنفي ممن برز في هذا المذهب: الشيخ **عبد الغفار بن لقمان من محمد أبو المفاخر الكُردي** الملقب تاج الدين المتوفى سنة 562هـ، إمام الحنفية في حلب، كان على غاية من الزهد والورع، تولى قضاء حلب للملك نور الدين محمود بن زنكي، وخلَّف آثاراً جمة في الفقه وأصوله، ففي الفقه شرح الجامع الصغير في الفروع للإمام المجتهد محمد بن الحسن الشيباني الحنفي المتوفى سنة 187هـ وكان يذكر لكل باب أصلاً ثم يخّرج عليه المسائل، وجمع المسائل التي يتحير في حلها العلماء في كتاب سمّاه "حِيرة الفقهاء"، وفي أصول الفقه شرح كتاب أستاذه ركن الدين عبد الرحمن بن محمد الكرماني الحنفي المتوفى سنة 543هـ الموسوم بالتجريد في كتاب سّماه "المفيد والمزيد".[74]

ومن فقهاء الحنفية البارزين في العهد الزنكي الإمام **رضي الدين محمد بن محمد السرخسي** الملقب بُرهان الإسلام المتوفى بحلب عام 571هـ،[75] قدم حلب في عصر نور الدين محمود ودرَّس بالمدرسة النورية والحلاوّية بعد الإمام علاء الدين الغزنوي المتوفى سنة 564هـ وقد اشتهر الإمام رضي الدين بمصنفه الكبير "المحيط" وهو في أربعة مصنفات "المحيط الكبير" وهو نحو من أربعين مجلداً، والمحيط الثاني، عشر مجلدات، والمحيط الثالث، أربعة مجلدات، والرابع مجلدان.[76]

وممن اشتهر بالفقه الحنفي الإمام **أبو بكر علاء الدين بن مسعود بن أحمد الكاساني** ملك العلماء المتوفى بحلب سنة 587هـ قدِم إلى نور الدين محمود بحلب رسولاً من ملك الروم فولاه نور الدين التدريس بالمدرسة الحلاّوية بعد أن عُزل منها الإمام رضي الدين السّرخسي المتوفى سنة 571هـ، وقد استمر علاء الدين الكاساني مدرساً في الحلاوية حتى وفاته، تفقه علاء الدين على أبي منصور محمد بن أحمد بن أبي أحمد السمرقندي صاحب "تحفة الفقهاء" وزوجّه شيخه ابنته فاطمة الفقيهة، وجعل مهرها شرح كتاب التحفة في كتاب أسماه البدائع فقال الفقهاء في عصره "شرح تُحفته وزوّجه ابنته" واشتهر علاء الدين الكاساني **وزوجته فاطمة الفقيهة** في مذهب أبي حنيفة في بلاد الشام وكانت تحفظ مصّنف والدها "التحُفة"[77] وكان كتاب "البدائع" أشهر مصنفات الإمام علاء الدين الكاساني وهو من الكتب المعتبرة في الفقه الحنفي وسُمي "بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع".[78]

في المذهب الحنبلي ممن برز في المذهب في العهد الزنكي الشيخ الزاهد **أبو الحسن علي بن عمر أحمد بن عمّار بن أحمد بن علي بن عبدوس الحرّاني** الفقيه الحنبلي ولد سنة إحدى عشرة وخمسمئة وسمع ببغداد، وتفقه وبرع في الفقه، والتفسير والوعظ، ثم قدم حّران وأمّ الناس بجامعها، له مصنفات حسنة في التفسير والفقه الحنبلي أبرزها "المذهب في المذهب" وكانت وفاته في آخر نهار يوم عرفه سنة 559هـ بحّران.[79] ومنهم: **أبو العلاء نجم الدين بن عبد الوهاب بن شرف الإسلام عبد الواحد بن محمد بن علي** الشيرازي الأصل الدمشقي، شيخ الحنابلة بالشام في وقته، والمتوفى عام 586هـ ولد سنة 498هـ سمع وأفتى ودرّس وهو ابن عشرين سنة إلى أن مات.[80]

لقد ظهر في هذا العهد كثير من علماء الفقه والأصول، وبخاصة على المذهب الشافعي، والحنفي والحنبلي. ولا عجب في ذلك – الاهتمام الكبير بالفقه والفقهاء – فقد كان الفقه مصدر التشريع، وعليه يعتمد الحكّام في ما يصدرونه من أحكام، وكان الملك قبل أن يصدر حكماً مهماً يحرص بأن يظفر أولاً بموافقة الفقهاء، بمختلف مذاهبهم على هذا الحكم كما جرى في دمشق حينما عقد الملك العادل نور الدين محمود مجلساً مع الفقهاء للتشاور في ما ينوي اتخاذه في أمر الأوقاف والمصالح المتعلقة بالمساجد، والمدارس و... ومصارف الأوقاف وجواز نقلها إلى مصالح أخرى أهم من الأولى، ولم يتخذ نور الدين

حكماً إلا بعد أن استمع لمشورة جميع الفقهاء وحظي بموافقتهم، وناقشهم في ما ينوي القيام به، وكُتِب في ذلك محضر في صورة ما جرى في ذلك المجلس، ووقّع عليه جميع الحاضرين.[81]

الخاتمة

أوضح البحث اهتمام نور الدين محمود بالفقه والفقهاء ولم يقتصر اهتمامه على المذهب الحنفي فقط (مذهبه) بل على المذاهب الأربعة، ولم يقتصر اهتمامه فقط على الفقهاء وتقريبهم منه بل وقف الأوقاف عليهم وأنشأ المدارس الفقهية في عهده وبالأخص المذهب الشافعي إذ كانوا الحربة التي وجهها نحو الشيعة. ولقد أصاب الفعل وأحسن التفكير في اهتمامه هذا، إذ إنه أنشأ الكثير من المساجد في حلب ودمشق والموصل، وبنى المدارس كذلك. ولقد برز الكثير من الفقهاء في عصره في المذهب الحنفي والشافعي والمالكي والحنبلي قد سلط البحث الضوء عليهم وعلى أبرز مؤلفاتهم.

الهوامش

1 سبط ابن الجوزي، شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قِزأُوغلي بن عبد الله، **مرآة الزمان في تواريخ الأعيان**، سوريا ط1، ج21، ص 203.

2 الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، **سير أعلام النبلاء**، بيروت ط9، ج20، ص531.

3 ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم بن نصر الله بن سالم ابن واصل، أبو عبد الله المازني التميمي الحموي، **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**، ج1، ص264.

4 سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، ط1، ج21، ص 203.

5 ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج1، ص263.

6 سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، ج21، ص 203.

7 الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج20، ص531.

8 أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي، **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، بيروت ط1، ج1، ص32.

9 الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج20، ص531.

10 سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، ج21، ص 205.

11 الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج20، ص531.

12 سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، ج21، ص 203.

13 المرجع السابق، ص 209.

14 المرجع السابق ص 203.

15 الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج20، ص531.

16 أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج1، ص32.

17 الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج20، ص531.

18 أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج1، ص32.

19 الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج20، ص531.

20 المرجع السابق، ص 203.

21 ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج1، ص268.
22 سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، ج21، ص 206.
23 المرجع السابق، ص 207.
24 ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج1، ص264.
25 الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج20، ص531.
26 سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، ج21، ص 211.
27 المرجع السابق، ص 205.
28 ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج1، ص266.
29 سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، ج21، ص 220.
30 ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج1، ص263.
31 سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، ج21، ص 211.
32 سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، ج21، ص 210.
33 خليل، عماد الدين خليل، نور الدين محمود الرجل والتجربة، دار القلم، دمشق ط1، ص116.
34 أبو صبيني، عبد القادر أحمد أبو صبيني، **دور نهضة نور الدين في نهضة الأمة ومقاومة غزو الفرنجة**، رسالة دكتوراة، معهد التاريخ العربي والتراث العلمي للدراسات العليا، ص188، ابن شهبة، تقي الدين أحمد ابن قاضي شهبة، **الكواكب الدرية في السيرة النورية**، بيروت ط1971، ص17.
35 المرجع السابق، ص 187.
36 سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، سوريا ط1، ج21، ص 208.
37 المرجع السابق.
38 ابن الشحنة، أبو الفضل محب الدين الحلبي، **الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب**، دمشق، دار الكتاب العربي، ص61.
39 المزيني، إبراهيم محمد الحمد المزيني، **الحياة العلمية في العهد الزنكي: دراسة في الازدهار العلمي عند المسلمين**، ط2013 ص390، 391.
40 النعيمي، عبد القادر بن محمد النعيمي الدمشقي، **الدارس في تاريخ المدارس**، بيروت ط1، ج2، ص 242.
41 الصابوني، علي محمد محمد، **نور الدين محمود شخصيته وعصره**، القاهرة ط1، ص151.
42 المرجع السابق، ص 152
43 المزيني، الحياة العلمية، ص393.
44 المرجع السابق.
45 الصابوني، نور الدين محمود –شخصيته وعصره، ص154
46 المزيني، الحياة العلمية، ص 398
47 الصابوني، نور الدين محمود –شخصيته وعصره، ص154
48 المزيني، الحياة العلمية، ص401.
49 ابن شداد، عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الجزيرة، وزارة الثقافة السورية ط1، ج1، ص276
50 المزيني، الحياة العلمية، ص406.
51 النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج1، ص 414.
52 ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي، **تاريخ مدينة دمشق**، بيروت ط1995، ج2، ص304.
53 النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج1، ص 452.
54 ابن جبير، أبو الحسين محمد بن أحمد بن بن جبير الكناني، الرحلة لابن جبير، دار صادر، بيروت، ص258.
55 الصابوني، نور الدين محمود –شخصيته وعصره، ص157
56 النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج1، ص 132.
57 المزيني، الحياة العلمية، ص438.

58 ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج3، ص55.
59 النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج1، ص 362.
60 الصابوني، نور الدين محمود –شخصيته وعصره، ص160.
61 المزيني، الحياة العلمية، ص448.
62 ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج2، ص307.
63 المرجع السابق، ج57، ص121.
64 أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج1، ص61.
65 المزيني، الحياة العلمية، ص254.
66 المزيني، الحياة العلمية، ص 265.
67 الصابوني، نور الدين محمود –شخصيته وعصره، ص66.
68 المرجع السابق.
69 السبكي، تاج الدين، **طبقات الشافعية الكبرى**، مطبعة عيسى البابي وشركاؤه، 117/6.
70 المزيني، الحياة العلمية، ص 256.
71 ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج5، ص196.
72 أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج1، ص47
73 المزيني، الحياة العلمية، ص257.
74 عبد القادر الحنفي، محيي الدين أبو محمد عبد القادر الحنفي. **الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية**، القاهرة ط1987، ج2 ص443.
75 المزيني، الحياة العلمية، ص 259.
76 عبد القادر الحنفي، الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية، ج4، ص25.
77 خليفة، حاجي خليفة، **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، مكتبة المثنى، بغداد، ج1، ص 371.
78 ابن العماد الحنبلي، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، دار الآفاق الجديدة، ج4، ص 183.
79 المزيني، الحياة العلمية ص261.
80 المرجع السابق ص 263.
81 أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج1، ص76، ونصه "وسَأَلْتُمْ عَن فواضل الْأَوْقَاف هَل يجوز صرفهَا فِي عمَارَة الأسوار وَعمل الخَنْدَق للْمصْلحَة المتوجهة للْمُسلمين فَأَقُول شرف الدّين عبد الْوَهَّاب الْمَالِكِي بِجَوَاز ذَلِك وَمِنْهُم من روى فِي مهلة النّظر وَقَالَ الشَّيْخ شرف الدّين بن أبي عصرون الشَّافِعِي لَا يجوز أَن يصرف وقف مَسْجِد إِلَى غَيره وَلَا وقف معِين إِلَى جِهَة غير تِلْك الْجِهَة وَإِذا لم يكن بُد من ذَلِك فَلَيْسَ طَرِيقه إِلَّا أَن يقترضه من إِلَيْهِ الْأَمر فِي بَيت مَال الْمُسلمين فيصرفه فِي الْمصَالح وَيكون الْقَضَاء وَاجِبا من بَيت المَال فوافقه الْأَئِمَّة الْحَاضِرُونَ مَعَه على ذَلِك"